الدرس السابع والعشرون :

طوبى للغرباء

روى الإمام مسلم في صحيحه ، عن أبي هريرة ﷺ ، عن رسول الله ﷺ ، أنه قال : « **إن الإسلام بدأ غريبًا ، وسيعود غريبًا كما بدأ ، فطوبى للغرباء** »[1].

غربة البدن :

إن الغُربة غُربتان . . . غُربة البدن : بالبعد عن الأوطان ، وفِراق الأهل والخلاَّن . وهي غربة تثير ـ ولا شك ـ عواطف الحنين دائما ، ومشاعر القلق والخوف في كثير من الأحيان ، وفي درجات يتفاوت فيها الناس . وهي التي قال فيها الشاعر يخاطب الحمامة ، وهى تنوح بجواره :

أجارتنا يـا إنّـا غريبـان ههنـا وكل غريب للغريـب نسـيب !

غربة الروح والفكر :

والغُربة الأخرى هي غُربة الروح والفكر . . . غُربة الغاية والوِجهة ، غُربة العقيدة والسلوك . . . وهذه هي الغُربة حقًّا . فإن صاحبها يعيش وحيدًا وإن كان بين جماهير الناس ، مستوحشًا وإن ازدحمت من حوله المواكب ، إنه يعيش بين الناس ولسان حاله يقول :

أنـا في أمـة تـداركها الله غريـب كصـالح في ثـمود

---

(١) رواه مسلم في الإيمان (١٤٥)، وأحمد (٩٠٥٤)، وابن ماجه في الفتن (٣٩٨٦)، عن أبي هريرة . وللحافظ المتقن الإمام ابن رجب الحنبلي رسالة في شرح هذا الحديث سماها : « كشف الكربة في وصف حال أهل الغربة ».

OBEIKAN.COM

هذه هي الغربة التي وصف النبيُّ ﷺ أصحابها في هذا الحديث ، وجعل لهم الطُوبى ، « فطوبى للغرباء ».

كيف بدأ الإسلام ؟ وكيف انتشر ؟

بدأ الإسلام غريبًا بين أقوام لا يؤمنون ، بين أقوام يصدُّون عنه ، ويُحادُّون الله ورسوله ، ويصبُّون الصاب والعلقم على كل مَن آمن بهذا الدين .

بدأ الإسلام بين نُزَّاع من القبائل[1] من هنا ومن هناك ، اعتنقوا دين الله ، وآمنوا به ، وخالطت بشاشة الإيمان قلوبهم ، فرضوا بكل ما يُصيبهم في سبيله ، ثم أراد الله لهذا الدين أن يقوى وينتشر شيئًا فشيئًا ، حتى عمَّ الآفاق ، وظهر على الدين كلِّه ، وجاء نصر الله والفتح ، ودخل الناس في دين الله أفواجًا .

كيف سيعود الإسلام ؟

ولكن . . . كما هي سُنَّة الله . . . كلُّ شيء يتغيَّر ، لا يبقى شيء على حال ، فدوام الحال من المحال .

إنَّ هذا الدين الذي قوي وانتشر وعمَّ الآفاق ، ستُصيبه غُربة في آخر الزمان ، وسيصبح أهله غرباء ، فطوبى لهؤلاء الغرباء .

طوبى للغرباء :

طوبى لهؤلاء المُتمسِّكين بحبله ، المُتشبِّثين بذيله ، المُتعلِّقين بأهدابه ، الذين لا يُفرطون في دينهم ، ويقبضون عليه وإن كان قبضًا على الجمر .

طوبى للغرباء . . ومعنى الطُّوبى : أي الفرحة وقرة العين والغبطة والسرور . . . تنتهي بالجنة ، طوبى للغرباء . . .

---

(١) وهم الذين نزعوا عن أهلهم وعشيرتهم جمع نازع ونزيع وهو الغريب الذي نَزَع عن أهله وعشيرته ، أي : بَعُدَ وغاب وقيل : لأنه ينزع إلى وطنه ، أى ينجذب ويميل . والمراد الأول . أي : طوبى للمهاجرين الذين هجروا أوطانهم في الله تعالى . كما في « النهاية » ٥ : ١٠٠ .

OBEIKAN.COM

من الغُرباء ؟

وفي الحديث : قيل يا رسول الله ، مَن الغرباء ؟ قال : «النُزَّاع من القبائل»[1]، وفي حديث عبد الله بن عمرو ، قيل : مَن الغرباء ، يا رسول الله ؟ قال : «أناسٌ صالحون قليلٌ في ناس سُوء كثير ، مَنْ يعصيهم أكثر ممَّن يطيعهم»[2].

وجاء أيضًا في حديث آخر رواه الإمام أحمد ، عن النبيِّ ﷺ : «إنَّ أحبَّ شيءٍ إلى الله الغرباء». قيل : ومَن الغرباء؟ قال : «الفارُّون بدينهم ، يجتمعون إلى عيسى ابن مريم عليه السلام يوم القيامة»[3]، وفي رواية أخرى من حديث آخر : مَن الغرباء ، يا رسول الله ؟ قال : «الذين يُحيون سُنتي ، ويُعلِّمونها الناس»[4].

ولا تناقض ولا اختلاف بين هذه الأحاديث والروايات . . . فكلُّها أوصاف مُشيرة إلى حقيقة هؤلاء الناس ، ومُعبِّرة عنهم ، كل حديث منها يشير إلى صفة من صفاتهم ، فهى تتكامل ولا تتناقض . ولذلك ذكر شيخ الإسلام (إسماعيل الهروي) في كتابه (منازل السائرين) في باب (الغُربة) : إنَّ الله تعالى يقول : ﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ (هود:١١٦)، بدأ بهذه الآية ، وعقَّب على ذلك ابن القيم بقوله : (استشهاده بهذه الآية في هذا الباب يدلُّ على رسوخه في العلم والمعرفة ، وفنِّ القرآن ، فإنَّ الغرباء في العالم : هم أهل هذه الصفة المذكورة في الآية . . . ﴿ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ (هود:١١٦)[5].

---

(١) رواه أحمد (٣٧٨٤) ، وقال مخرِّجوه : إسناد أحمد صحيح على شرط مسلم رجاله ثقات رجال الشيخين غير أبي الأحوص فمن رجال مسلم ، وابن ماجه في الفتن (٣٩٨٨) ، وابن أبي شيبة في الزهد (٣٥٥٠٧) ، والدارمي في الرقاق (٢٧٥٥) ، والبزار (٢٠٦٩) ، وأبو يعلى (٤٩٧٥) ، عن ابن مسعود ، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه ، دون قوله : قيل : من الغرباء؟ قال : «النزاع من القبائل» (٣٢٢٣) .

(٢) رواه أحمد (٦٦٥٠) وقال مخرِّجوه : حديث حسن لغيره ، والطبراني في الأوسط (٨٩٨٦) ، عن عبد الله بن عمرو ، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد : رواه أحمد والطبراني وفيه ابن لهيعة وفيه ضعف (٥٤٥/٧) ، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٦١٩) .

(٣) رواه ابن المبارك في الزهد (١٥١٣) ، والآجري في الغرباء (٣٧) .

(٤) رواه القضاعي في مسند الشهاب (١٣٨/٢) ، عن عمرو بن عوف .

(٥) مدارج السالكين (١٩٤/٣) .

بِمَ ينشغل الغُرباء؟

هؤلاء هم الغرباء . . . هم الممدوحون المغبوطون . . . ولقلَّتهم في الناس جدًّا سمَّوا غرباء ، فإنَّ أكثر الناس على غير هذه الصفات .

الناس مشغولون بدنياهم ، وهؤلاء مشغولون بدينهم .

الناس مشغولون بالفرار إلى الخلق ، وهؤلاء يفرُّون إلى الحق : ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ (الذاريات: ٥٠) .

الناس يعملون لأمور تافهة ، وهؤلاء يعملون لإحياء سُنة النبي ﷺ ، ويُعلِّمون الناس . . . ولهذا كانوا غرباء بين الناس .

فأهل الإسلام في الناس غرباء ، والمؤمنون في أهل الإسلام غرباء ، وأهل العلم في المؤمنين غرباء ، وأهل السنة الذين يُميِّزونها من الأهواء والبدع فيهم غرباء ، والداعون إليها الصَّابرون على أذى المخالفين هم أشدُّ هؤلاء غُربة .

ولكن هؤلاء كما قال الإمام ابن القيم : (أهل الله حقًّا)[1].

غربة الأكثرين الموحشة :

فلا غُربة عليهم ، وإنما غُربتهم بين الأكثرين ، الذين قال الله فيهم : ﴿ وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ (الأنعام:١١٦). أولئك هم الغرباء ، من الله ورسوله ودينه ، وغُربتهم هي الغُربة المُوحشة ، وإن كانوا هم المعروفين ، المشار إليهم ، كما قال القائل :

وليس غريبًا مَن تناءتْ ديارُه ولكن مَن تنأينَ عنه غريبُ !

ويروى أنَّ موسى عليه السلام ، حينما خرج فارًّا من قوم فرعون ، انتهى إلى مدين ، على الحال التي ذكر الله ، وهو وحيد . . . غريب . . . خائف . . . جائع . . . فقال : يا رب ، وحيد مريض غريب . قالوا : فنودي : يا موسى ، الوحيد مَنْ ليس

---

(١) مدارج السالكين (١٩٦/٣) .

له مثلي أنيس ، والمريض مَنْ ليس له مثلي طبيب ، والغريب من ليس بيني وبينه معاملة[1].

موصولون بالله غرباء عند الناس :

هؤلاء الغرباء حقًّا . . . أما هؤلاء فإن كانوا غرباء في الناس ، فهم موصولون بالله عز وجل .

إن الغُربة التي وصفها النبي ﷺ ، في هذا الحديث ، هي مناط الفخر ، هي تاج يتوَّج أصحابه عند الله يوم القيامة .

هذه هي الغُربة لا وحشة على صاحبها ، بل هو آنس ما يكون إذا استوحش الناس ، وأشد ما يكون وحشة إذا استأنسوا ، فوليُّه الله ورسوله والذين آمنوا . . . وإن عاداه أكثر الناس وَجَفَوْهُ .

أغبط الأولياء عند الله عز وجل :

في حديث القاسم ، عن أبي أمامة ، عن النبي ﷺ ، عن الله عز وجل : « إنَّ أغبط أوليائي عندي لمُؤمن خفيف الحاذ ـ قليل المال ـ ذو حظٍّ من صلاة ، أحسن عبادةَ ربه ، وكان رزقه كَفافًا ، وكان مع ذلك غامضًا في الناس ، لا يُشار إليه بالأصابع ـ ليس من المشاهير ولا المعروفين ـ وصبر على ذلك حتى لقيَ الله ، عجلت منيتُه ، وقلَّ تراثه ، وقلَّت بواكيه »[2].

ومن هؤلاء الغرباء ، ما رواه أنس في حديثه ، عن النبي ﷺ : « رُبَّ أشعث أغبر ذي طِمْرَين لا يُؤبه له ، لو أقسم على الله لأبرَّه »[3]، وفي حديث أبي هريرة : « رُبَّ أشعث مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبرَّه »[4].

---

(١) مدارج السالكين (١٩٦/٣) .

(٢) رواه أحمد (٢٢٢٢١) وقال محققوه : ضعيف جدًّا وهو شبه موضوع ، والترمذي في الزهد (٢٣٤٧) ، وابن ماجه في الزهد (٤١١٧) ، والحميدي في المسند (٤٠٤/٢) ، وأبو نعيم في الحلية (٢٥/١) ، والبيهقي في الشعب باب الزهد وقصر الأمل (١٠٣٥٧)، عن أبي أمامة .

(٣) سبق تخريجه صـ ٥٨ .

(٤) سبق تخريجه صـ ٤٨ .

OBEIKAN.COM

ملوك أهل الجنة :

هؤلاء ملوك أهل الجنة كما جاء في الحديث : « ألا أخبركم عن ملوك أهل الجنة؟ » . قالوا : بلى ، يا رسول الله . قال : « كل ضعيف أغبر ذي طمرين لا يُؤبه له ، لو أقسم على الله لأبرَّه »[1]. لا يؤبه له . . . إن استأذن لم يُؤذَن له ، وإن شفع لم يُشفَّع ، وإن قيل لم يُسمَع ، لأنه ليس من ذوي الجاه ولا المنزلة ولا أصحاب المناصب ، إنه في الناس غريب . . . كما قال الحسن : المؤمن في الدنيا كالغريب لا يَجْزع من ذُلِّها ، ولا ينافس في عزِّها ، للناس حال وله حال ، الناس منه في راحة ، وهو من نفسه في تعب[2].

ليس عند الغرباء يأس :

طوبى لهؤلاء الغرباء . . . ليس معنى هذا التأييس من نُصرة الإسلام ، كما يُريد بعض الناس أن يفهموا من هذا الحديث ، أن ييأسوا . . .

لا ، على كل مسلم أن يُحاول أن يكون من هؤلاء الغرباء ، أن يُكثِّر منهم حتى تزول غربتهم ووحشتهم ، وقد جاء أن للإسلام دولةً قبل الساعة ، وأن الله ناصر دينه ، وأن الله تعالى يقول : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ (التوبة:٣٣).

والنبيُّ ﷺ يقول : « إنَّ مثل أمتي مثل المطر ، لا يُدرىٰ أوله خير أو آخره »[3]، وقال : « لن يخزي الله أمة أنا أوَّلها ، والمسيح آخرها »[4].

---

(١) رواه ابن ماجه في الزهد (٤١١٥) ، والطبراني في الكبير (٨٤/٢٠) ، وفي مسند الشاميين (١١٩٢)، والبيهقي في شعب الإيمان باب الزهد وقصر الأمل (١٠٤٨٨)، عن معاذ بن جبل .

(٢) رواه ابن أبي شيبة في الزهد (٣٦٣٥٨) ، وأحمد في الزهد صـ٢٦٢ ، وابن أبي الدنيا في محاسبة النفس (٧٨) .

(٣) رواه أحمد (١٢٣٢٧) ، وقال محققوه : حديث قوي بطرقه وشواهده ، وهذا إسناد حسن ، والترمذي في الأمثال (٢٨٦٩) ، وقال : حسن غريب من هذا الوجه ، وأبو يعلى (٣٤٧٥) ، عن أنس ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٨٥٤) .

(٤) رواه ابن أبي شيبة في الجهاد (١٩٦٦٠) ، عن عبد الرحمن بن جبير .

OBEIKAN.COM

تفاوت الغربة :

وقد ذكر الإمام ابن القيم رحمه الله : إنَّ الغربة قد تكون في بلد دون بلد ، وفي قوم دون قوم . وفي زمان دون زمان ، وفي حال دون حال ، فيكون الاسلام غريبًا في وطن ، قويًّا عزيزًا في وطن آخر ، وكذلك فى وقت دون وقت[1].

فاستمسكوا ـ أيها المؤمنون ـ بإيمانكم ، وعضُّوا عليه بالنواجذ ، ولا يُهمكم موقف الناس منكم ، وحسبكم أنَّ الله معكم ، وأنَّ الله وليكم . . . ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴾ (محمد:١١).

* * *

(١) راجع مدارج السالكين (١٩٥/٣) .

OBEIKAN.COM